

ما هو الحل لإنقاذ صناعة النشر من أسوأ أزماتها

النشر العابر للحدود يفتح آفاقاً أمام الكتاب العربي



تشكل صيغة المعارض الدولية، الرثة التي تقام من خلالها مهنة النشر أعباء المرحلة الحالية. فبعد تهاوي أركان هذه الصناعة تحت تأثير ضربات عصر النت والعولمة والنشر الإلكتروني وصولاً إلى الواقع الذي فرضه فايروس كورونا المستجد، فإن الحال الصعبة التي وصلت إليها أحوال هذه المهنة، يحتم وجود حل ما، عليه ينقذ ما يمكن إنقاذه. وبحسب الكثير من الناشرين والقراء فإن المعارض الدولية للكتاب الورقي تشكل المنفذ الأهم والمنقذ شبه الوحيد فيما لو تم العمل عليها واستثمارها بشكل جيد ومختلف.

نضال قوشحة
كاتب سوري

بحسب دراسات عالمية سجلت أن الناشر في الغرب يعتمد على سياسات الدعم الحكومي بما نسبته 75 في المئة، وهي التي تقتني الكتب وتدعم سبل توزيعها وشراؤها، بينما تكون نسبة 25 في المئة المتبقية على عاتق القارئ الذي يقوم بشراء الكتاب من الناشر مباشرة أو من منافذ البيع المختلفة. في مقابل ذلك فإن الناشر العربي يعتمد على القارئ العربي كمستقبل للكتاب بنسبة 90 في المئة، أما النسبة الباقية فتكون لعوامل أخرى. وهذا ما يعني أن مهنة نشر الكتاب تجعل الناشر في لجة المخاطر التجارية وتقلباتها.

صناعة متكاملة

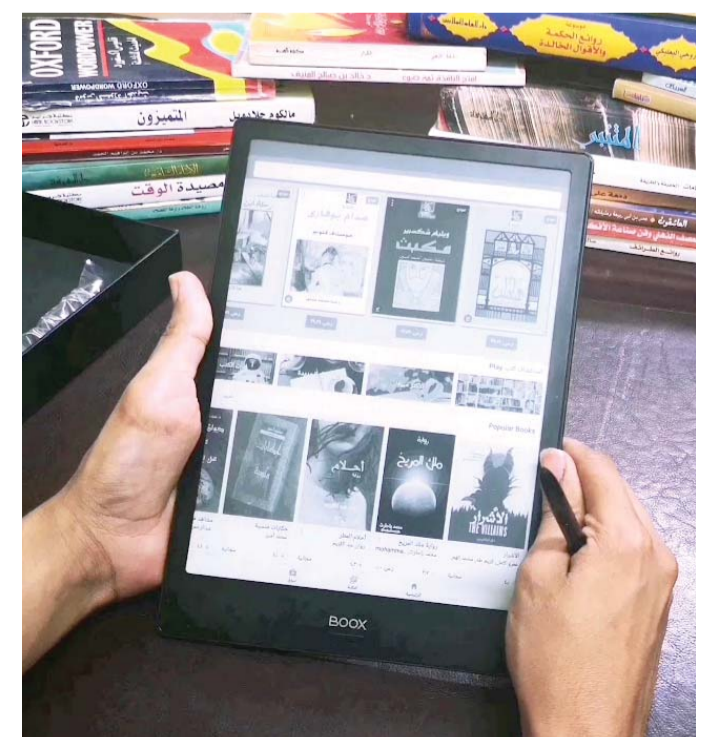
يرى كثير من الناشرين أنه لا يمكن النظر إلى الكتاب في إطار قيمته المعرفية فحسب، التي هي بالضرورة أهم قيمة، ويؤكدون أن له قيمة موازية تكمن في أهميتها التجارية الكبرى التي تشكل أحد العوامل الهامة للتطور الحضاري والمعرفي والاقتصادي لأي دولة ومجتمع في العالم. فتأسيس صناعة متكاملة للكتاب أمر تسعى إليه كل المجتمعات الإنسانية، وسعيها للوصول إلى هذا الهدف تقوم بتنظيم المهنة وإصدار ما يلزم من قوانين وإجراءات تفعل صناعة الكتاب وتسير بها إلى الأمام.

من الضروري دعم معارض الكتاب لكونها طوق النجاة الأخير الذي يمكن من خلاله دعم صناعة النشر وتفعيلها

ومنذ أن بدأ عصر الثورة الصناعية في أوروبا وتطور علوم وفنون الطباعة زاد الاهتمام بصناعة الكتاب وجذب إليه العديد من رؤوس الأموال الذين طوروا

عبر أجيال صناعة الكتاب والنشر. وفي هذا الإطار، وجدت منذ حوالي الخمسة عشر عاماً فكرة المعارض، التي انتقلت لأول مرة عام 1556 في فرانكفورت في ألمانيا. وصار هذا المعرض الأعرق في التاريخ الإنساني. في الوطن العربي والنشرين الذين كانوا ينشرون الكتب وينسخونها، وتوسعت نشاطاتهم خاصة في عهد تطور الترجمة. لكنها لم تصبح صناعة إلا مع دخول المطبعة إلى مصر والشام في بدايات القرن التاسع عشر، وسارت كما في غيرها من البلاد في حال متصاعدة من التطور حتى وصلت في مرحلة خمسينيات القرن العشرين إلى مراتب هامة خاصة في بيروت والقاهرة، لكن الحال لم يستمر على هذا المنوال، فقد أكدت العديد من الدراسات الحديثة أن صناعة النشر لم تكن في وضع جيد وكانت تعاني الكثير من العوائق الجغرافية والرقابية والترويجية والقانونية خاصة منذ بداية الألفية الثالثة، ومما زاد الوضع سوءاً تفشي وباء كورونا المستجد الذي وضع الصناعة كلها في مهيب الرج.

ومن المعلوم أن صناعة النشر لا تعني مهنة التأليف أو الترجمة فحسب، فهناك مهن أخرى مكملة لها تشمل العديد من المجالات منها: تصميم الأغلفة، والتي



انتشار الأمية التقنية يعيد للكتاب الورقي مكانته

المعارض الدولية للكتاب هي الملاذ الأخير

الشارقة الدولي الذي صار له وزن إقليمي هام مع الصالون الجزائري فقد زاره في دورته الأحدث 2.2 مليون تقريبا بمشاركة أكثر من ألفي دار نشر.

وفي معرض أربيل بالعراق شاركت في الدورة الرابعة عشرة 300 دار نشر من 21 دولة. أما معرض تونس للكتاب وبدورته الخامسة والثلاثين فقد شارك فيه 319 ناشراً من 23 دولة، أما معرض الرياض للكتاب فقد زاره في دورة عام 2019 ما يزيد عن مليون ومئتي ألف زائر.

معرض القاهرة الدولي للكتاب يعتبر من أهم المعارض في المنطقة. ظهر عام 1969 واعتبر عام 2006 ثاني أكبر معرض في العالم بعد فرانكفورت وبيروت سنوياً أكثر من 2 مليون زائر، أما في الهند البلد الذي يقارب سكانه المليار ونصف المليار شخص، فهناك معرض كاليكوتا أكبر معرض للكتاب في آسيا، وكذلك معرض نيودلهي أقدم معارض

الهند. وفي إيطاليا ينظم معرض توسكانيا الذي يعتبر أهم معارض كتاب الطفل في العالم وتشارك به المئات من دور النشر ويزوره الآلاف من دول العالم. وخلال دورات هذه المعارض العالمية لكتاب سواء كانت عامة أو تخصصية، تتحقق مصلحة الناشر والقارئ في تجاوز العوائق التي تعترض طريق تطور صناعة النشر وتصل الناشر بالقارئ وتحقق حالة التفاعل بينهما ولو في حدتها الأدنى.

وفي إيطاليا ينظم معرض توسكانيا الذي يعتبر أهم معارض كتاب الطفل في العالم وتشارك به المئات من دور النشر ويزوره الآلاف من دول العالم. وخلال دورات هذه المعارض العالمية لكتاب سواء كانت عامة أو تخصصية، تتحقق مصلحة الناشر والقارئ في تجاوز العوائق التي تعترض طريق تطور صناعة النشر وتصل الناشر بالقارئ وتحقق حالة التفاعل بينهما ولو في حدتها الأدنى.

وحققت الروايات نسبة نمو بمقدار 250 في المئة، وحققت كتب علم النفس نسبة نمو 123 في المئة، بينما حققت كتب السيرة غير الذاتية نسبة نمو 243 في المئة.

أما في الكتاب الورقي، وقياساً على تجارب عالمية، فهي ما يخص معارض الكتاب الورقية، مسجداً أن معرض فرانكفورت في ألمانيا يحقق حضوراً حاسماً، فهو الأكبر في العالم أسس بالتوازي مع تطور حركة الطباعة في ألمانيا. ويعقد في شهر أكتوبر من كل عام وتشارك به معظم دول العالم متمثلة بألاف دور النشر. فقد بلغ عدد زوار دورة عام 2018 مئات الآلاف أتوا من مختلف دول العالم.

أما عربياً فيتعتبر معرض بيروت للكتاب أعرق معرض عربي، حيث انطلق في الثالث والعشرين من أبريل عام 1956 في الجامعة الأميركية ببيروت وقيمه النادي الثقافي العربي بالتعاون مع اتحاد الناشرين اللبنانيين. في الشهر الحادي عشر من كل عام، وصار صاحب شهرة ومكانة كبيرة ويزوره سنوياً عشرات الآلاف وبمشاركة الآلاف من العناوين. وفي متابعة رياضية وبلغت الأرقام فإن 183 ألف عنوان ظهرت في الدورة الأحدث للصالون الدولي للكتاب في الجزائر بمشاركة 298 داراً جزائرية. أما معرض

بصيغة pdf. وقد حقق النشر الإلكتروني قفزات نوعية في العديد من المجالات وصارت له منصات ومراكزه التي ساهمت بالتوسع فيه. تقول عنه ضحى الرفاعي مديرة تطبيق رفوف أنه "خلال مارس 2020 وبلغت نسبة النمو 200 في المئة مقارنة بالشهر الذي سبقه،

وكذلك ارتفاع التكاليف وعدم منح إعفاءات جمركية أو مالية لأصحاب هذه الصناعة. ومن المشاكل الأخرى أيضاً أن منافذ بيع الكتاب قد تقلص عددها في معظم المدن العربية حيث أغلقت الكثير من المكتبات وتحولت إلى مقاهي إنترنت أو محلات أخرى ندر على أصحابها أرباحاً مالية أكبر. وتظهر مشكلة كبرى لدى الناشر العربي وهي مسألة الرقابة، التي تتغير من دولة إلى أخرى بحيث لا يمكن للناشر معرفة رد فعل الرقيب في بلد محدد نتيجة التغيير الدائم في أزمجة تلك الدول، والذي ينعكس بالضرورة على إمكانية قبول أو رفض الكتاب وبالتالي إمكانية وصوله إلى القارئ في ذلك البلد، وتحقيق حالة التفاعل والبيع وبالتالي تحقق العائد التجاري منه.

إن حجم النشر في الوطن العربي يراوح بين 40 و60 ألف عنوان تنشر في الكتب والدوريات والسلاسل العلمية. تحتل الكتب العلمية فيها ما يقارب الـ 20 في المئة. وهو رقم أقل بكثير من المعدلات الموجودة في دول عالمية كثيرة. وإضافة إلى ذلك يظهر العائق الأهم وهو ضعف القوة الشرائية للقارئ، الذي صار موضوع الكتاب لديه من الأمور الأقل أهمية وحلت مكانه حوائج حياتية أكثر إلحاحاً كالغذاء والسكن والتعليم.

أصام هذا الواقع كان لا بد من إيجاد وسائل حماية ودفع لصناعة النشر، فكانت آلية النشر الإلكتروني التي ساهمت إلى حد جيد بتجاوز عوائق نشر الكتاب الورقي خاصة في المجال الأدبي وتحديد الروائي، وكذلك في جانب الأبحاث الأكاديمية. لكن الثابت أن حجم الأمية الكبير في العالم العربي وجهل الكثيرين بكيفية التعامل مع أساليب القراءة على الحاسوب وشبكات النت يعيق تنفيذ هذه الفكرة وتطورها ويعيد الموضوع إلى الكتاب الورقي مجدداً.

لا شك أن النشر الإلكتروني تطور في العقد الأول من القرن الحالي بصورة كبيرة، وحقق حضوراً جيداً على مساحة النشر لدى القارئ العربي، وهو يعتمد في ذلك على أسلوبين، الأول منهما يتمثل في نشر المادة بصيغة إلكترونية بحيث ينشر الكتاب كاملاً بصيغة ذات تصميم شكلي محدد وخاص، ويكون الإصدار أصلياً للمادة. والشكل الثاني يمكن بنشر الكتاب

يقوم بها فنانون تشكيليون ورسامون، وكذلك هنالك أعداد كبيرة من المنضدين الذين يصفون المؤلفات والمترجمات في صياغات محددة وفق أحدث طرق تنسيق صفحات الكتاب، كما أن مهنة تجارة السورق تتداخل مع صناعة نشر الكتاب، وكذلك تجارة بيع الأجار وشحن الكتب والترويج لها وتقديمها في برامج إعلامية وإعلانية خاصة، وصولاً إلى بيعها في منافذ البيع والمكتبات الخاصة في كل أرجاء العالم. وبالتالي ستكون حرفة الكتاب والنشر صناعة متكاملة تتداخل فيها العديد من المهن والحرف.

العصرية وتحديات النشر

وجود عصر النت والتوسع في استعمال مواقع التواصل الاجتماعي لم يكن عاملاً إيجابياً لصناعة النشر الورقي التقليدي، فإمكانية التواصل عبر هذه المواقع وبسرعة وسهولة، جعل مسألة تبادل الأفكار، ومنها الكتب، متاحة للجميع ومن الجميع الأمر الذي أدى إلى ظهور منابر نشر جديدة عبر منصات إلكترونية عصرية، حققت رواجاً ومناجاة خاصة لدى جيل الشباب.

مع انتشار الإنترنت ظهرت مناهج عديدة واجهت الناشر العربي وجعلته في مواجهة أخطار مالية وتجارية كبيرة، أولها صغر كمية العدد المطبوع الذي لا يتجاوز المئات، وهذا ما يعني تكلفة مالية أكبر نتيجة عدم وجود مردود مالي مواز لها يشكل عائداً مالياً مناسباً ومعوذاً.

كما تحضر موضوعة فقدان تنظيم قانوني فعال لحقوق الملكية الفكرية بحمي حقوق الناشر من القرصنة الفكرية، الأمر الذي يعني فقدان الناشر التحكم بمنتجاته واستغلاله من قبل قرصنة المهنة وإيجاد طبعات مستنسخة تحقق لهم مزايا مالية جيدة دون تحمل تكاليف مالية تدفع للمؤلفين والمترجمين وسواهم. مع العلم أن كل الدول العربية انضمت لمعاهدات دولية في هذا الاتجاه وتمتلك قوانين داخلية للملكية الفكرية لكنها غالباً غير مفعلة.

كما يواجه الناشر العربي مشكلة كبرى في عدم تعمم ظاهرة القراءة في مجتمعاتنا وعدم وجود مبادرات حكومية أو أهلية قوية تؤكد على هذا التوجه، إلا من خلال بعض المحاولات الخجولة. يضاف إلى ذلك عدم وجود البات ترويج مناسبة للكتاب وإغراق السوق على المنتجات الاستهلاكية، ويضاف إلى ذلك صعوبات الشحن بين البلدان العربية

تأسيس صناعة متكاملة للكتاب أمر تسعى إليه كل المجتمعات الإنسانية، للوصول إلى هذا الهدف

وهذا ما يعني ضرورة دعم هذه المعارض لكونها طوق النجاة الأخير الذي يمكن من خلاله دعم صناعة النشر وتفعيلها للمحافظة على العلاقة بين طرفيها وتحقيق ما هو مطلوب منها. ويتعلق أصحاب دور النشر الصوت تجاه القراء لكونوا متفاعلين مع المعارض الدولية المتعددة للكتاب التي تقام عادة في أواخر العام تزامناً مع افتتاح المدارس والجامعات، كونه يشكل الملاذ الأخير للتواصل بينهما وتحقيق التواصل الصحيح.